الأقلام

مجلة فكرية عامة تصدرها وزارة الإعلام - بغداد

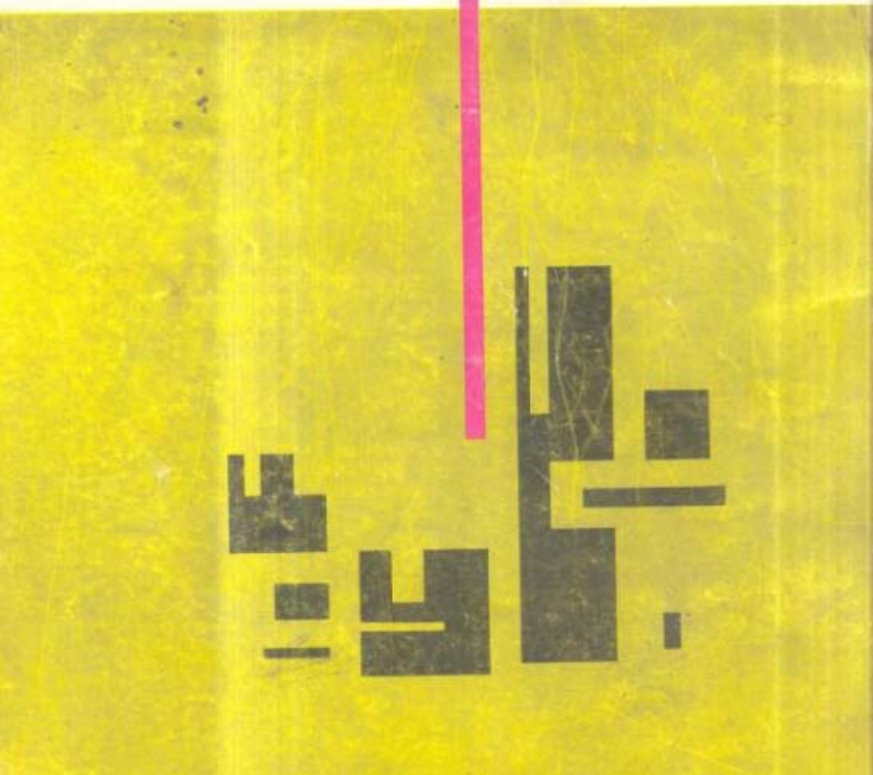

العدد ٢ السنة التاسعة ١٩٧٣

دفاع عن فن القول

للاستاذ عبدالكريم غلاب
دار الفكر المغربي ـ فاتحة
١٩٧٢

- **تقييم وملاحظات**
- **بقلم : احمد نعيف الجنابي**

اولا : عنوان الكتاب :

يذكرنا عنوان الكتاب بثلاثية صدرت قبل هذا الكتاب هي :

١ ـ دفاع عن البلاغة . للاستاذ احمد حسن الزيات .

٢ ـ فن القول . للاستاذ امين الخولي .

٣ ـ دفاع عن الادب . لجورج ديهامبل . ترجمة الدكتور محمد مندور ـ القاهرة ١٩٤٢ .

ولكن الكتاب تجاوز موضوعات هذه الكتب ليتحدث عن مقالات في « النقد الادبي » .. فمرة يتحدث عن فن الشعر ومرة عن فن القصة واخرى عن فن المسرحية . كما يتضمن كتابه مقالات لا تدخل في موضوع النقد الادبي كمقالة : « ازدواجية الانسان » ومقالته عن « الادب والدولة » . وهذا يدخل في القسم الثاني وهو منهج الكاتب .

ثانيا : منهج الكاتب

يحتوي الكتاب على خمس وعشرين مقالة بعضها في فن الشعر وبعضها في فن الاسلوب وتسع في فن القصة وآخر عن المسرحية .... ومقالات اخرى عن : الالتزام وعن الثقافة والاديب .

وقد حاول الكاتب الفاضل ان يرتب هذه المقالات ترتيبا يقرب بعضها من بعض فجاءت مقالاته مرتبة هذا الترتيب :

ازدواجية الانسان ـ انفتاح المثقف ـ الاديب والثقافة ـ حفظ الادب من الانهيار ـ الطبع والصنعة في فن القول ـ صناعة الشعر ـ صناعة النثر ـ لغة الادب ـ السهل الممتنع ـ الادب واحياء اللغة ـ الاسلوب والوضوح ـ بين الموضوع والمضمون ـ الادب والمجتمع التقاني ـ الادب والدولة ـ الادب والالتزام ـ الالتزام الفني ـ فن الشعر .... الخ

فهو مع محاولته الجمع بين العناوين المتشابهة ، لم يفلح في ايجاد الانسجام بين مقالات الفن الواحد ، فان الموضوعات ذات المضمون الواحد ـ وحتى العنوان المتشابه ـ بدت متباعدة في ترتيبها . فموضوع « السهل الممتنع » هو ذو مضمون مشابه لموضوع «الاسلوب والوضوح»، فكان من الافضل ان يتقاربا . وموضوع « لغة الادب » هو موضوع قريب من موضوع « الادب واحياء اللغة » .

والمنهج المقترح هو ان ترتب مقالات الكتاب حسب التقسيم المعروف في كتب النقد :

في الشعر ـ في القصة والرواية ـ في المسرحية ـ مفهوم الالتزام ... وهكذا

ثم توضع مقالات الفن الواحد بعد عنوانها .

منهجه وقضايا النقد :

ما المنهج الذي عالج به الكاتب الفاضل موضوعات الكتاب ؟ هنالك ثلاثة مناهج او طرق لمعالجة القضايا النقدية :

فالمنهج الاول : يقوم على اساس تقديم النموذج ثم تطبيق القواعد النقدية عليه او استنتاجها منه ، كما فعل الدكتور محمد مندور في « الميزان الجديد » .

والمنهج الثاني : يقوم على اساس تقديم القواعد والنظريات النقدية ثم تقديم النماذج الجيدة . كما فعل سيد قطب في كتابه «النقد الادبي:اصوله ومناهجه» .وكما فعل E.M. Forster، في كتابه: « ملامح في القصة » . A spects of the Nouel

والمنهج الثالث : يتصف بحديث عن قواعد نقدية بلا نموذج ... والمنهجان الاولان هما المذهبان في كتب النقد المعاصر اما المنهج الثالث ، فهو منهج قليل الجدوى ، لانه يقوم على غير اساس فهو « اشبه بالرمي الماء عاطفو على السطح بلا جذور تشده الى القاع » . والمنهج الثالث لا يصلح حتى للحديث عن فرع واحد من فروع النقد الادبي ، فالناقد ريشاردز في مقاله المشهور : « العلم والشعر » لم يجرد حديثه من الامثلة والنماذج الحية ، لان التجريد يفقده متعتي التشويق والحياة، وهما امران لازمان في النقد الادبي . والمنهج الثالث لا يصلح حتى في تقرير النظريات النقدية ، ومما يؤيد هذا الرأي ان الاستاذين : رينيه ولك ، و أوستن وارن ، لم يحاولا ولو مرة واحدة أن يجردا كتابهما : « نظرية الادب » من الامثلة الحية في الادب في جميع فروعه وفي اكثر لغات الادب الحي في المعمورة ...

● منهجه والمصادر النقدية

لقد حدد الاستاذ عبدالكريم غلاب منهجه هذا في مقدمة الكتاب بقوله : « لم اقصد ـ فيما عرضته من آراء وافكار وتجارب الى المناقشة النظرية ، ولا عدت في الاراء التي استعرضتها الى مصادرها الاصلية .. فليس ما قصدت اليه القيام ببحث اكاديمي لعظم قيمته بكثرة حواشيه وفهرس المصادر التي رجع اليها المؤلف ، ولكنني استخدمت اسلوب السرد التلقائي للافكار المتداولة وناقشتها باسلوب ذاتي » .

هذا موقف الكاتب الفاضل من المصادر الاساسية في النقد وغير النقد ، وهو منهج لا نوافقه عليه .

ففي كل فرع من فروع المعرفة مصادر حازت ثقة اولي الرأي فيه ، وفي النقد الادبي مصادر كثيرة نالت شهرة واسعة حتى اصبحت من المراجع المهمة . ولعل الكاتب الفاضل ادرى بها ...

ووجهة نظرنا انه يحسن بأي كاتب ان يرجع الى مصادر كل فرع ويناقش الاراء التي وردت فيها ، ثم يضيف رأيه لان الموضوعات التي عالجها الكاتب الفاضل كثيرة ، لكنه لم يرجع الى مصدر من تلك المصادر ... !!

وما دامت القضية تدور حول اصالة كل رأي ، فالحجة القائمة معه هي التي ترجحه . اما ان يخلط رأيالكاتب مع آراء الآخرين فهذا ما لا نوافقه عليه ...

ان عدم الرجوع الى المصادر الاساسية في كل موضوع جعل كلام الاستاذ غلاب غير واضح في بعض مقالاته ، مع أنه يدعو الى الوضوح في التعبير (الاسلوب والوضوح ، ص٧٢) . فحديثه عن الصورة الشعرية، لا يعطي القارىء ما يراد بالصورة بالضبط . وقد يستنتج من السياق انه يريد بها التصوير الجميل (دفاع عن فن القول ، ص٤٤) . وهنا يتبادر السؤال الآتي :

ما المقصود بالتصوير الجميل ؟

وهل الشاعر موكل بابداع الصور الجميلة ؟

ولا تدري ماذا يريد الكاتب الفاضل بالتصوير ؟

أيريد التخيل أم يرد مجرد التشكيل الصوري ؟

لقد تركنا الكاتب الفاضل في حيرة وفي إبهام لأنه اعتمد على مجرد الخواطر النفسية والأفكار الغائبة ... وهي امور غير مسعفة في مثل هذه القضايا النقدية التي تعتمد اساسا على المصادر الاساسية - ومثل ذلك حديثه عن غموض الاسلوب (انظر دفاع عن فن القول ، ص ٨٠) .

ولو رجع الكاتب الفاضل الى كتاب « الصورة الشعرية » للناقد الشاعر « سي . داي لويس » ، الذي طبع احدى عشرة طبعة لا سمعه في هذا الباب ، ولو رجع الى كتاب « سمة انماط من الغموض في الشعر الحديث » للناقد التحليلي « وليم امبسون » لتبين له أن « الغموض » لا يقابل الوضوح .. فالوضوح يقابله عدم الوضوح ، الذي قد يكون سببه التعقيد في العبارة ، او الابهام في الفكرة ، أو اعتماد الكاتب على قضايا غير مفهومة بالنسبة للقارىء المثقف بل القارىء العادي . أما الغموض فهو شيء يختلف عن هذه الاشياء جميعا .

هذه بعض نتائج عدم الرجوع الى المصادر الاساسية في الموضوعات التي عالجها ...

● مادة الكتاب وموضوعاته

اولا : ان الكاتب الفاضل يطرح في آثار الفصول آراء مطروحة من قبل ، ولم يتجاوز الآراء السائدة والمسلمات النقدية الا في ثلاثة فصول سنتحدثها بالحديث قريبا. فهو يورد هذه العبارات المعروفة :.. « الشعر فن جميل » . ص٤٠ ، وفي ص٤١ يقول : « ان الشعر يعتمد على الكلمة الجميلة والموسيقى الجميلة والتصوير الجميل » . وفي ص٤٢ يقول : « ان الشاعر لكي يختار الفاظه ، في حاجة الى ثروة لغوية واسعة والى دقة في الحس اللغوي »

وفي نهاية المقال : (صناعة الشعر) ، يؤكد العبارة السابقة قائلا : لنستخلص من كل ذلك أن الشعر فن جميل يحتاج ـ كسائر الفنون ـ الى موهبة وذوق واحساس وشعور ! !

وفي الفصلين : « في الشعر » و « الشعر وتطور الفكر والحضارة » يتحدث الكاتب عن مستقبل الشعر . ويتنبأ له بالنجاح .. وحديثه بهذا المعنى غير جديد . واشير هنا الى ناقدين كبيرين عالجا عبدا الموضوع كل من وجهة نظره الاول هو « ماثيو آرنولد » في مقالته المشهور : « دراسة الشعر » ، وهو مترجم الى العربية ، والذي ابتدأه بقوله : « ان مستقبل الشعر لعظيم » .

والناقد الثاني هو : ريشاردز في مقاله « العلم والشعر » وهو مترجم الى العربية ايضا ، ومنشور في مصر ودمشق في كتيب وكتاب ..

ومن المقالات التي اماد فيها الكاتب الفاضل القول ، مقالة « الطبع والصنعة في فن القول » ..

وهو موضوع قديم . فقد عالجه الجاحظ (المتوفى ٢٥٥ هـ) في كتابه « البيان والتبيين » . وابن طباطبا العلوي (ت ٣٢٢ هـ) في كتابه : « عيار الشعر » . وعالجه من المحدثين الدكتور شوقي ضيف في كتابه « الفن ومذاهبه في الشعر العربي » .

أما مقالته : « الادب والثقافة » ، فهو من المقالات التي تحدث عن مضمونها كثير من الكتاب وأثارت كثيرا من المناقشات قديما وحديثا .

ولعل اشهر من تشير اليه من القدماء ابن خلدون (المتوفى ٨٠٨ هـ) ، حيث اشار في « مقدمته » الى أن من شرط الاديب « الاخذ من كل فن بطرف » . ومن المعروفين بل والمغالين في هذا الاتجاه الدكتور محمد التويجي في كتابه « ثقافة الناقد الادبي » .

واريد أن اختم هذه النقطة بالقول انه لا بأس ان يعالج موضوع واحد اكثر من مرة او تكتب عن نموذج فني واحد مقالات متعددة ، بشرط أن يكون في تكرار الحديث اضافة جديدة ، او تكون النظرة الى الموضوع جديدة او من زاوية خاصة ... وهذا ما لم يتوفر لمقالات الكتاب . ثانيا : اورد المؤلف الفاضل مصطلح « الرثم » هكذا دون أن يعطي معناه وهو مصطلح اجنبي يجيله القارىء العربي ومعناه «الايقاع» Rhythm.

ومعنى هذا المصطلح غير واضح وغير مجدد حتى في العربية وهو من المصطلحات التي يمكن أن توضع تحت اسم « مشكلات فنية » . وقد سماه مؤلفا كتاب « نظرية الادب » مشكلة او معضلة Problem والنقاد مختلفون في اعرابه وفي تحديد اختصاصه .. أهو مختص بالشعر أم بالنثر أم بهما معا ؟ أهو من خصائص الكلام أم من خصائص الموسيقى ؟

(انظر : نظرية الادب ، صفحات : ١٦٤ وما بعدها ، لندن ١٩٦١) فهذا وامثاله من المصطلحات ، يجب ان يحدد المقصود بها قبل أن نجعلها اساسا للمقارنة مع غيرها من مصطلحات عربية معروفة كالتخييل.

« انظر : دفاع عن فن القول ، ص ٤٣ » .

● الجديد في الكتاب :

واهم ما جد في كتاب الاستاذ غلاب ثلاث مقالات هي :

الادب والالتزام .

الالتزام الفني .

التجربة القصصية .

فالموضوعان الاولان يعالجان موضوع الالتزام الادبي والفني من وجهة نظر خاصة أقل ما يقال فيها انها طريفة . فالكاتب الفاضل يخالف من يرى في الالتزام مذهبا معينا او منهجا ينهجه الفنان او الشاعر فلا بحيد عنه . بل يرى : أن يلتزم الفنان او الاديب التزاما فنيا ويحدد معنى الالتزام هذا بقوله : « ان الالتزام في الادب ليس شيئا مفروضا من خارج على الادب ، وانما نبع داخلي من ذاتية الاديب قبل أن يبتناه الاديب او يستلهمه من خارج ،أو يعطاه كمذهب او توجيه يلتزم به ويسير في ظله . الحياة نفسها تفرض هذا الالتزام ، لان فيها الكثير مما يدفع الاديب ليكون مع الحياة ومع الانسان ومع الشعب والامة والوطن » .

أما موضوع « التجربة القصصية » فهو من امتع فصول الكتاب واجدرها بالقراءة لانه يعتمد على تجارب فنية طويلة وممارسة في فن القصة . وهو آت من ان الكاتب الفاضل مارس فن القصة وله فيه خبرة طويلة وقد كتب قصتين طويلتين : « دفنا الماضي » ، و « سبعة ابواب » ونشر مجموعتين قصصيتين : الاولى : « مات قرير العين » والاخرى : « الارض حبيبتي » .